

الدبلوماسية الروسية ومشكلة الكويت سنة ١٩٠١

البروفيسور يوزداريفسكي
ترجمة وتعليق الدكتور نوري عبد الباقية
كلية الآداب

لعبت الدبلوماسية الروسية في النصف الثاني من سنة ١٩٠١ دورا فعالا في جميع مجالات النزاع حول مشكلة الكويت^(٢) . تشبه سياسة روسيا القيصرية في الخليج العربي سياسة كل من بريطانيا وألمانيا في أن هذه السياسات تتناسب في درجة تأثيرها وقوتها مع الوضع العسكري والاقتصادي والداخلي لكل منهما ، ففي النصف الثاني من سنة ١٩٠١ كانت سياسة روسيا القيصرية تجاه الازمة الكويتية تمتاز بأنها حذرة جدا وفعالة جدا وهذا ما يميزها عن السياسة الألمانية تجاه هذه المشكلة . فعندما علم السفير

(١) مؤرخ سوفياتي في معهد الدراسات الشرقية - اكااديمية العلوم السوفياتية - موسكو له مؤلفات كثيرة في تاريخ البلاد العربية الحديث . اشهر مؤلفاته : سكة حديد بغداد والتوغل الامبريالي الألماني في الشرق الأدنى - طاشقند سنة ١٩٥٥ ، الصراع في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية والبحر الاحمر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين موسكو سنة ١٩٦٥ . السياسة البريطانية والعلاقات الدولية في حوض الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - موسكو سنة ١٩٦٨ . وهذه الترجمة باب من احد فصول هذا الكتاب .

(٢) مشكلة الكويت : يقصد بذلك الصراع بين الدول الاوربية وتركيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من أجل السيطرة على الكويت وخاصة بين بريطانيا وألمانيا فقد استغلت بريطانيا الخلافات الموجودة بين الشيخ مبارك الصباح والسلطان العثماني من أجل سيطرتها على الكويت وعدم السماح لاي دولة اوربية اخرى بتحقيق مثل تلك الاطماع .

الروسي في استانبول زينوفوف عن عزم الدولة العثمانية ارسال الطراد التركي «زحاف» الى المياه الكويتية اتصل بوزير الخارجية توفيق باشا وطلب منه أن يقنع السلطان عبدالحميد بوجوب التوقف عن ارسال اطراد التركي «زحاف» الى المياه الكويتية في الظرف الراهن وأن لا يحاول أن يسعر مشكلة الكويت في هذا الوقت.

يتضح لنا نهج الدبلوماسية الروسية في الخليج العربي من التقرير الذي بعث به السفير الروسي في استانبول زينوفوف الى القنصل الروسي في مدينة البصرة «آداموف» في ٣١ آب سنة ١٩٠١ والذي جاء فيه : «أن من واجباتنا الاساسية مساندة الحالات التي تثير المتاعب لبريطانيا وتؤدي الى اضعاف موقفها ... واذ اتحت لكم الفرصة يجب ان تفهموا وتوضحوا للمحكّام المحليين في المنطقة بأن من مصلحتهم أن لا يتأثروا أو يهتموا بالمساندة الخارجية وأن لا يثيروا المشاكل والمصاعب امام السلطة العثمانية في شبه الجزيرة العربية . واذ كان بإمكانك - يقصد آداموف - مقابلة الشيخ مبارك فيجب أن توصيه بأن لا يسيء علاقته بالدولة العثمانية ولا يعطي مجالا لتدخل بريطانيا لان ذلك التصرف يفسح لها المجال لان تضع يدها على كل سواحل الخليج العربي ... أن ضعف الدولة العثمانية يعتبر خطرا كبيرا بالنسبة للمقاطعات العربية المستقلة وان هذا يساعد بريطانيا على تحقيق مشاريعها التوسعية في بسط نفوذها على أكبر جزء ممكن في هذه المنطقة»^(١).

بعد صيف سنة ١٩٠١ حاولت الدبلوماسية الروسية العمل بكل جهد من أجل الحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي وخاصة في الكويت . وكان قصدها من وراء ذلك أن لا تفسح المجال لتقوية مركز بريطانيا في

(١) ارشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية . وثيقة ١٦١٥ ، ورقة ٣٦٥ .

تلك المنطقة • فأستغل الحكام الروس مصاعب بريطانيا والتي جاءت نتيجة لجر جنود افريقيا في صراعهم ضد بريطانيا في ايران ، وكان قصدهم أن يتغلبوا على خصمهم في ايران، ومع ذلك فإن الحكام الروس في بتروغراد^(٢) كانوا يخشون من أن اثاره مشكلة الكويت في تلك الفترة ربما يفسح المجال للدبلوماسية البريطانية أن تتخذها حجة قانونية من أجل القيام بهجوم معاكس واحتلال كل حوض الخليج العربي^(٣) • ففي نهاية شهر تشرين الثاني عام ١٩٠١ طلب السفير الروسي في استانبول زينوفوف مرة أخرى من السلطان عبد الحميد أن لا يقوم بأي عمل يؤدي الى تعكير الجو السياسي في هذه المنطقة^(١) • ويظهر ان السلطان العثماني لم يأخذ بنصيحة السفير الروسي هذه^(٢) • انتقد السفير الروسي في حديثه مع السفير الالماني مارشال الاجراءات العثمانية الاخيرة اذ أنه وصفها بأنها سياسة غير حكيمة وغير ذكية كما أنه ابدى امتعاضه من تلك الخطوات^(٣) • وفي الحديث الذي دار

(١) عاصمة روسيا القيصرية والتي تسمى في الوقت الحاضر لينينغراد •

(٢) ان تحفظ روسيا القيصرية وعدم قيامها بعمل ايجابي ضد التوسع البريطاني في الخليج العربي لا يمكن ان يفسر الا لاعتقاد روسيا بعدم قدرتها على مجابهة بريطانيا لوحدها وهي تفتش عن حليف لها يشاركها المساهمة في هذه المجابهة ، وربما لم تكن جادة في هذا الموضوع اكثر من اتخاذ كوسيلة للضغط على بريطانيا لكي تكف عن اطماعها التوسعية في ايران خاصة في اتجاه المناطق الشمالية • (المترجم) •

(٣) ارشيف سياسة روسيا الخارجية ، وثيقة ٣٦٥ ورقة ٢١ •
(٤) على الرغم من صدور الاوامر الى الطراد العثماني بالدخول الى المياه الكويتية ، لكن قائد الطراد لم يتمكن من تنفيذ هذه المهمة • اذ أن البواخر الحربية البريطانية ترصدت لهذا الطراد وعندما اقتربت من المياه الكويتية اعترضت طريقه السفن الحربية البريطانية وأجبرته على الرجوع الى الفاو •

(3) Die Grosse politik der europäischen Kalimette
187- — 1914. Bd XVII No. 5322.

بين وزير خارجية روسيا والسفير الفرنسي بوثيرون في بتروغراد تبين للسفير الفرنسي بأن الروس متحفظين جدا تجاه مشكلة الكويت وأن هذه السرية جاءت نتيجة للبرود الذي ساد العلاقات الروسية الفرنسية حول مشاكل الشرق الأدنى وإن الحكام الفرنسيين لم يأخذوا وجهة نظر روسيا حول مسألة فاشودا ، وعلى الرغم من تحفظ وزير خارجية روسيا لامزدوروف فقد ظهر للسفير الفرنسي بأن الدبلوماسية الروسية تنتظر بكل لهفة وبفارغ العبر نشاطات السياسة الألمانية حول مشكلة الكويت^(١) . كانت سياسة بتروغراد تهدف الى دفع ألمانيا في تلك المرحلة لان تساهم في مشكلة الكويت بشكل مقال ويبدو ذلك واضحا من البرقيات التي ارسلها السفير الروسي في برلين الى وزير الخارجية الروسية في بتروغراد حول ايجاد علاقة وثيقة مع ألمانيا^(٢) . لكن الحكومة الألمانية لم تستجب لدعوة روسيا هذه وتحججت في أن السلطان العثماني رفض الاقتراح الألماني الداعي الى عرض مشكلة الكويت على محكمة العدل الدولية في لاهاي . واعتبر الامبراطور وليم الثاني ذلك اهانة شخصية له ولذا فلا يمكن له أن يتحدث مع السلطان عبدالحميد حول هذا الموضوع مرة أخرى^(٣) . وربما يفسر موقف ألمانيا

(٤) فاشودا : قرية في اعالي نهر النيل في السودان . اوشكت الحرب أن تقع بين بريطانيا وفرنسا حول مصير هذه القرية . لكن فرنسا اضطرت الى الانسحاب منها بموجب معاهدة سنة ١٨٩٨ واصبحت تابعة الى النفوذ البريطاني كجزء من السودان (المترجم) .

(1) Documents diplomatiques francais 1871—1914.
Serie II Vol. 1 No. 438.

(٢) حاولت روسيا القيصرية جر ألمانيا الى هذه المشكلة علرا الرغم من انها لم تكن راغبة في ظهور ألمانيا في الخليج العربي وذلك لاعتقادها «أي روسيا» بعدم قدرتها مجابهة بريطانيا لوحدها . (المترجم) .
(٣) ارشيف سياسة روسيا القيصرية الخارجية . وثيقة ٣١٩٥ ورقة

• ١٥٨

هذا نتيجة لتأثرهم بالرسالة التي بعث بها اليهم الشيخ مبارك والتي رُغم فيها ارتماؤه في احضان الدولة العثمانية • على الرغم من الرفض الالمانى هذا فان روسيا القيصرية اكدت مرة أخرى طلبها الى المانيا بالعمل الجدي من أجل ايقاف بريطانيا عند حدها • في التدخل في شؤون الكويت • جاء ذلك في البرقية التي بعث بها الوزير الروسي في ١١ تشرين اول سنة ١٩٠١ الى وزير خارجية المانيا والتي لفت فيها نظر زميله الالمانى مرة أخرى الى تدخلات بريطانيا في الكويت واخضاعهم بصورة تدريجية الشيخ مبارك الى النبعة البريطانية^(١) • وقبل هذا بدأت تظهر في الاوساط الروسية بعض الآراء الداعية الى ضرورة المساهمة الفعالة في المشكلة الكويتية بغض النظر عن موقف لمانيا وذلك للاسباب الآتية:

١ - ان الدبلوماسية الالمانية مصممة على عدم الاندفاع الى الامام أو عدم استغلال كافة طاقاتها ضد النفوذ البريطاني في الكويت وانها تنتظر المبادرة من الامبراطورية الروسية وان الاستمرار في خطة عدم التدخل الذي تنتهجه روسيا القيصرية تجاه مشكلة الكويت ربما يؤدي الى نتيجة واحدة وهي تقوية نفوذ بريطانيا في الكويت وفي شمال سواحل الخليج العربي وهو أمر لا ترغب روسيا في حدوثه •

٢ - ضعف العلاقات البريطانية الالمانية يتضح بوجود الحملة الصحفية الالمانية ضد انكلترا وضد المانيا في الصحف البريطانية وهذا يعني ليس هناك ما يدعو الى الشك والخوف من واجود امكانية التقارب بين بريطانيا ومانيا ضد روسيا • وهذا ما يدعو روسيا الى التحفظ تجاه مشكلة الكويت •

٣ - نشرت الصحف البريطانية في هذه الفترة بعض الآراء السائدة في

(١) ارشيف سياسة روسيا الخارجية وثيقة ١٤ ورقة ١٠ •

اوساط بعض الحكام البريطانيين الداعية الى امكانية التقارب مع روسيا كما انها دعت الى بعض التنازلات بالنسبة الى مصالحها في الشرق الاوسط خاصة في الخليج العربي من أجل التقرب من روسيا ضد المانيا •

٥ - طالبت بعض الصحف الروسية الحكومة الروسية بالعمل الجدي ليس فقط في ايران ولكن أيضا في الكويت خاصة تلك الصحف التي تمثل طبقة التجار واصحاب المصانع الذين لهم مصالح اقتصادية في ايران • كانت مواقف واندفاعات الصحف الروسية مختلفة وعلى درجات متباينة في قوتها • فجريدة «روسيا» رفعت شعار احتلال الكويت لكي لا يقع لقمة سائغة في فم بريطانيا^(١) • اما جريدة «بيرجيفوي» فدعت الى احتلال ميناء بندر عباس واتخاذ كقاعدة لمجابهة المخططات البريطانية الرامية الى احتلال الكويت^(٢) • كل هذه الاسباب جعلت الحكومة الروسية تغير موقفها تجاه البريطانيين في الخليج العربي • خاصة وان حكام روسيا القيصرية نظروا الى مسألة تزايد النفوذ البريطاني في هذه المنطقة سوف

(١) ان الاسباب التي دفعت بقسم من المسؤولين البريطانيين الدعوة الى وجوب التقرب من روسيا هو خوفهم من احتمال الاتفاق بين روسيا والمانيا وهذا مما يغير ميزان القوى في الشرق الاوسط في غير صالح بريطانيا يضاف الى ذلك رغبة بريطانيا في تصفية مشاكلها مع روسيا لكي تتفرغ لمجابهة الخطر الالماني الذي ازداد قوة في المنطقة بعد حصول المانيا على امتياز سكة حديد بغداد - برلين • ويمكن ان يضاف الى ذلك اعتقاد بريطانيا بأن الخطر الروسي اخف وطأة من الالماني ويمكن لبريطانيا أن تتخلص من وسيا بكل سهولة فيما اذا تمكنت من درء الخطر الالماني اولا • (المترجم)

(٢) جريدة روسيا ٢٣-١٠-١٩٠١ «بتروغراد» •

(٣) جريدة «بيرجيفوي» ٢٣-١٢-١٩٠١ «بتروغراد» •

يؤدي الى قوة النفوذ البريطاني في جنوب ايران فتصبح المقاومة البريطانية عنيفة للبضاعة والرأسمال الروسي في بلاد فارس.

بدأ زينوفوف يفكر بوسيلة يتمكن بها من مجابهة التغلغل البريطاني في الكويت ففي النصف الثاني من شهر كانون اول سنة ١٩٠١ اقترح على حكومته الخطة التالية في حالة قيام الحكومة البريطانية بخرق تعهداتها حول وحدة اراضي الامبراطورية العثمانية واقدامها على احتلال الكويت أو أي جزء يقع بالقرب من الخليج العربي ، فان روسيا القيصرية بدورها تكون غير ملزمة أو انها تعلن بطلان مفعول المعاهدة الروسية البريطانية حول افغانستان^(٣).

ان هذه التحولات في نهج السياسة الروسية يوضح أيضا مشروع ارسال الطراد الروسي « فارياغ » الى المياه الكويتية ، لا يمكن فصل هذا المشروع عن خط السياسة الروسية الجديدة اضافة الى فتح قنصلية روسية في البصرة وفي ميناء بوشهر وتأسيس شركة للملاحة البحرية بين مواني البحر الاسود خاصة ميناء اوديسا ومواني الخليج العربي . تهدف هذه الخطوات والاعمال الى شيئين هما:

١ - مجابهة النفوذ البريطاني المتزايد في الخليج العربي .

٢ - توطيد النفوذ الروسي في جنوب ايران .

وأنه لم يكن من المصادفة تقديم القروض الروسية الى الحكومة الفارسية سنة ١٩٠٠ في الوقت الذي ضعف فيه موقف بريطانيا العالمي بتأثير حرب جنوب افريقيا .

(١) ارشيف سياسة روسيا الخارجية وثيقة ٣٦٤ ورقة ٣٣ .

وعندما حان وقت رحلة الطراد الروسي «فارياغ» الى موانيء الخليج العربي في بداية شهر كانون اول سنة ١٩٠٠ ارسل القنصل الروسي «اداموف» في البصرة رسالة الى «زينوفيف» وزير خارجية روسيا يعارض فيها هذا المشروع لاعتقاده ان اثارة الازمة الكويتية مجددا غير ملائم في هذه الفترة ، لكن زينوفيف لم يأخذ بهذه الاقتراحات واصر على تنفيذ رحلة الطراد الى موانيء الخليج العربي ، كما ابرق الى القنصل لروسي في بوشهر والمدعو «اوفسكا» طالبا منه أن يكون على ظهر الطراد وان ينزل الى الاراضي الكويتية ويقابل الشيخ مبارك ويلفت نظره في أن بريطانيا أكثر خطرا على الكويت من الامبراطورية العثمانية ولهذا فعليه أن يحسن علاقته مع الاخيرة^(١) . ولا نعلم هل نفذ القنصل الروسي «اوفسكا» هذه التعليمات أم لا ، ولكن من التقرير الذي قدمه «اوفسكا» وقائد الطراد «فارياغ» الى زينوفيف بعد زيارتهم للكويت يمكن ان يستنتج بأن المقابلة كانت جيدة وأن شيخ الكويت لم يكن مرتاحا جدا الى الطلبات والتسهيلات التي ارادها البريطانيون منه^(٢) . وعندما دخل الطراد الروسي الى مياه الخليج العربي أخذت الصحف والمجلات الروسية تركيز اهتمامها على منطقة الخليج العربي كما وجهت النقد اللاذع للسياسة البريطانية واصفة اياها بالعدائية والرياء ، ففي ١٤ تشرين اول سنة ١٩٠١ كتبت صحيفة « سنت بتر بورغسكي فيدوموستي » تقول: ان مياه الخليج ملك مجاني لجميع الحكومات لكن بريطانيا تعتبر نفسها المالك الوحيد لهذه وخاصة الكويت^(٣) . اما جريدة « بير جيفيا » فقد طالبت باتخاذ تدابير حازمة وبدون انكار ضد سياسة بريطانيا في الخليج العربي تلك السياسة القائمة على أساس الاحتلال والتوسع طالما يتواجد في مياه

(١) ارشيف سياسة روسيا الخارجية . وثيقة ٣٦٥ ، ورقة ١٣ .

(٢) سانت بتر بورغسكي فيدوموستي ١٩٠١/١/١٤ «بتروغراد» .

الخليج الطراد الروسي • وبعد يوم طالبت هذه الجريدة بتذكير بريطانيا بأنها أصبحت ضعيفة بعد حرب جنوب افريقيا وان الامبراطورية البريطانية أصبحت مشخة بالجراح والطعنات^(٢) • اما الجريدة الشوفينية المتطرفة « نوفوي فريميا » فطالبت بمحاصرة بريطانيا واستغلال الظرف الملائم للحد من نفوذها كما وجهت انتقادا لاذعا الى سياسة بريطانيا العدائية في الخليج والى عملائها وجواسيسها^(٢) • وانتقدت مجلة « روسسكي مسل » اجراءات بريطانيا في الخليج واعتبرتها مقدمة لاحتلال الكويت • ومما كتبت: « وهكذا فان بريطانيا تدعي بأنها تقوم بدور الحماية او المحافظة على وحدة اراضي الامبراطورية العثمانية ، ولكن اهدافها الرئيسة في الواقع هو احتلال الكويت وضرب المصالح العثمانية والالمانية والروسية في المنطقة سيما وان لروسيا مصالح تجارية مهمة في الخليج العربي ولهذا فان مثل هذه المواقف يجب أن تجابه بالمقاومة الشديدة^(١) » وأشارت بعض المجلات الروسية الى التحشيدات البريطانية في الخليج وحللت ذلك بأنه خطوة اولى للقيام باحتلال الكويت واشهر تلك المجلات هي « روسكي بوغاتستفا »^(٢) •

ان هذه الحملة الصحفية التي شنتها صحف ومجلات روسيا القيصرية جلبت انظار الصحافة البريطانية والتي أخذت تقيم هذه الحملة الصحفية فكتب مراسل جريدة التايمس في مدينة بتروغراد قائلا : « ان الصحيفة الحربية هنا - يعني في بتروغراد - لم تحت الحكومة القيصرية على القيام بأي اجراء عسكري من أجل مشكلة الكويت^(٣) » •

(١) جريدة بير جيفيا ١٠/١٢/١٩٠١ •

(٢) نوفوي فريميا ١٢/١٢/١٩٠١ •

(٣) روسسكي بوغاتستفا رقم ١ سنة ١٩٠١ ص ١٩ (بتروغراد) •

(٤) روسسكي مسل رقم ١١ سنة ١٩٠١ •

(3) The Times 27. XII. 1901.

في الواقع فان الحكام الروس لم يرغبوا في استغلال مشكلة الكويت اكثر من كونها وسيلة الموقوف في وجه الزحف البريطاني الى الاقسام الشمالية من الخليج العربي وهناك الكثير من موظفي وزارته الخارجية الروسية الذين وضعوا آمالهم على أساس ان هذا المشروع لا يمكن ان ينفذ في المستقبل الا بالتعاون مع المانيا ، وعن طريق المشاريع المشتركة مع المانيا يمكن أن تحل اكبر مشكلة سياسية في الشرق الادنى لصالح روسيا القيصرية .

يمكن ان يضاف الى ما ذكره المؤلف • ان روسيا القيصرية لا تملك من القدرات المالية ما يمكنها من بناء القواعد البحرية على سواحل الخليج العربي ولحصول على مناطق نفوذ لها في حوض الخليج العربي سيما وانها تملك الكثير من المستعمرات في اواسط آسيا وبحر البلطيق وفنلندا وبولندا وسيبيريا والشرق الاقصى وان هذه المستعمرات كانت مصدر قلق الى السلطة القيصرية نظرا لعدم توفر الامكانيات العسكرية والمالية التي تمكنها من مجابهة ثورات شعوب تلك المستعمرات من جهة واطماع الدول الاستعمارية الفتية التي تطمع في السيطرة على هذه المناطق وهذا مما يؤكد الفكرة القائلة ان روسيا ارادت استغلال مشكلة الكويت لكي تمارس صغوطا دبلوماسية ضد بريطانيا لكي تكف عن محاولات التوغل الى الاقسام الشمالية في بلاد فارس والتي هي منطقة نفوذ روسية منذ نهاية القرن الثامن عشر .

(المترجم)